البحر الاعظم

جبران خليل جبران

* * *

بالامس — وما أبعد الامس وما اقربه — ذهبت ونفسي الى البحر العظيم لنغسل بمائه ما علق بنا من غبار الارض واوحالها .

ولما بلغنا الشاطىء طفقنا نبحث عن مكان خالٍ يحجبنا عن العيون .

وبينا نحن سائران ألتفتنا فاذا برجل جالس عَلَى صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه الملح قبضة بعد قبضة ويطرحها الى البحر .

فقالت لي نفسي — « هوذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلها . وليس المتشائم بخليق ان يرى جسدينا العاريين . فلنغادر هذا المكان اذ لا سبيل الى الاستحمام ههنا . »

فتركنا ذلك المكان وتابعنا المسير حتى وصلنا الى خور في الشاطىء فاذا برجل واقف عَلَى صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر وهو يتناول منها قطعاً من السكر ويرمي بها في البحر .

فقالت لي نفسي — « وهذا هو المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر فيه . وحذراً من المتفائلين ان يروا جسدينا العاريين » . فعدنا نواصل المسير حتى

عثرنا عَلَى رجل واقف بقرب الشاطئ، يلتقط الاسماك الميتة ويعيدها بحنو الى البحر ·

فقالت لي نفسي — « وهذا هو الشفوق الذي يحاول ارجاع الحياة لمن في القبور · فلنبتعد عنه ·»

ثم انتهينا الى حيث رأينا رجلاً يرسم خياله عَلَى الرمال فتجيء الامواج وتمحو ما رسمه وهو يتابع عمله المرة بعد الاخرى ·

فقالت لي نفسي — « هوذا المتصوف الذي يقيم من اوهامه صناً ليعبده· فلندعه وشأنه ·»

ومشينا الى ان تبصرنا في خليج هادئ، رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في اناء من العقيق ·

فقالت لي نفسي — « هوذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العنكبوت رداءً ليلبسه · وهو ليس بجدير أن يرى جسدينا عاريين »

فتابعنا المسير · واذا بنا نسمع صوتاً هاتفاً — « هوذا البحر العميق · هوذا البحر الهائل العظيم »

فبحثنا عن مصدر الصوت فرأينا رجلاً واقفاً مديراً ظهره الى البحر وقد وضع صدفة عَلَى اذنه وهو يصغي الى دمدمتها ·

فقالت نفسي — « ـر بنا · فهذا هو الدهري الذي يدير ظهره الى كليات لا يستطيع الاحاطة بها ويشغل ذاته بجزئيات تستميل كليته ·»

فسرنا الى ان رأينا في معشبة رجلاً بين الصخور وقد دفن رأسه في الرمال·

فقلت لنفسي — « هلمي يا نفس نستحم ههنا · فهذا الرجل لا يستطيع ان يبصرنا ·»

فهزّت نفسي رأسها قائلة —

« لا والف لا · ان من تراه هو شر الناس أجمعهم · هو التقي النقي الذي يحجب نفسه عن مأساة الحياة فتحجب الحياة مسراتها عن نفسه ·»

حينئذٍ ظهر على وجه نفسي حزن عميق · وبصوت تقطعه المرارة قالت —

« لنذهبن من هذه الشواطئ · فليس هنا مكان خفي محجوب نستطيع ان نستحم به · وأنا لن أرضى أن اسرح غدائري الذهبية في هذه الريح ، أو أن اكشف صدري البض امام هذا القضاء ، او ان انجرد واقف عارية امام هذا الثور ·»

فغادرت ونفسي ذلك البحر العظيم · وسرنا ننشد البحر الاعظم ·